«الاسلامية وقصيدة حسان بن ثابت العينيّة»

د. مصطفى عليان
جامعة أم القرى/ مكة المكرمة

ملخص

تحاول هذه الدراسة لقصيدة حسان بن ثابت العينيّة، الإبانة عن مرتكز رؤيته الفكرية والنفسيّة في دعوة بني تميم إلى الاسلام عام الوفود، والتي تتبدى للباحث في الجماعة المسلمة من المهاجرين والأنصار.

وعلى الرغم من أن قصيدة حسان بن ثابت كانت نقيضة مقيدة بقصيدة الزبرقان بن بدر العينيّة (نحن الكرام فلاحيّ يعادلنا...)، فإن حساناً ضمّن هذا الموقف مدحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفخراً بالجماعة المسلمة، ووعظاً لبني تميم، وإعلاناً وبياناً لأبعاد الدين وآثاره.

ولم يكن تحليل القصيدة مطلباً أساساً في هذه الدراسة، أو مقصداً جوهرياً لها، وإنما كان مجازاً للوقوف على أسلوب الدعوة وفنية الوعظ، ومجالاً لتطبيق عناصر الاسلامية منهجاً في الدراسة النصيّة، من خلال شرف المعنى وصحته بأبعاده المختلفة، ونقاء الاحساس وصدقه، وتهذيب الأداء، ونبل الغاية.

وبهذا المنهج انتهت الدراسة إلى تصويب أخطاء بعض الدارسين لهذه القصيدة، التي كان منطلقهم فيها أن حساناً كان جاهلي النزعة في معانيه وروحه وانفعاله وأسلوبه، شديد الاحساس بمجد قومه.

Abstract

This study of al **Aiyniyyah Qaseedah of Hassan bin Thabet** attempts to explore the Central cultural and psychological

insight of the poet in inviting **Bani Tameem** to convert to Islam in the year of **Wufud,** and that such insight was revealed among the Islamic party of **Muhajireen and Ansar.**

In Spite that the **Qaseedah of Hassan bin Thabet was a Naqeedhah Muqaiyadha by the al Aiyniyyah Qaseedha of al Zabriqan bin Bader (Nahnu al Kiramu fala Haiyya Yu'adiluna...),** Hassan was able to praise the Prophet and the Islamic party, to make Bani Tameem understand the message and to proclaim Islamic ideas.

This study also highlights the style of al **Da'wa** and the art of al **Wa'th,** in addition to making use of Islamic methods of studing texts, which led to discovering and correcting of the mistakes that others made in their study of this **Qaseedah.**

These mistakes resulted from the assumption that Hassan's attitude and convictions expressed in the Qaseeda were non-Islamic Jahili based on strong feelings for his people and their glorious past.

مقدمة الدراسة

الحمدلله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد، فإن الاسلامية أو الأدب الاسلامي مذهب يدأب على أن يجد لنفسه مكاناً في خضم هذ التيارات النقدية المتسارعة في هذا العصر الحديث، والتي تقوم على فلسفة فكرية عقدية.

ولا يخفى أن للاسلامية جذوراً تراثية في المادة الأدبية عبر العصور المتعددة، وأصولاً نقدية، ظل الأخذ بها مرعياً في مقاييس النقاد في تاريخنا النقدي.

وتقوم الاسلامية في الأدب على ركائز أربع، شرف المعنى بأبعاده الابتكارية والخلقية، نقاء الإحساس ونظافته، تهذيب الأداء وجماله، نبل الهدف وسموّه ومحور هذه الركائز الاحسان الذي كتبه الله في كل شيء، ففي صحيح مسلم عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

وعلى ذلك فالإحسان الذي هو العلم بالحُسْن، أو الصفة العملية للوعي الباطن صفة

موازية للحَسَن، وهو ما حسن من كل شيء، فهو معيار جمالي خلقي في آن واحد.

ومن خلال بلورة التطبيق النقدي لهذه الركائز في قصيدة حسان بن ثابت رضي الله عنه، تلتفت هذه الدراسة إلى تناول جانب من فن الوعظ في الأدب الاسلامي باظهار عناصره الفنيّة، خاصة أن القصيدة من شعر عام الوفود في وعظ بني تميم ودعوتهم إلى الاسلام.

ولما كانت هذه الدراسة غير قاصدة إلى عرض البناء المتدرج للقصيدة عرضاً متقصداً التحليل، ومالت الى استكناه رؤية القصيدة الفكرية والنفسية وحركتها الداخلية، فقد عنيت بتصويب آراء الباحثين الذين نسبوا فكر القصيدة ومعانيها الى التصور الجاهلي. والعصبية للأنصار دون غيرهم.

وآخر دعوانا الحمدلله رب العالمين.

الاسلامية وقصيدة حسان بن ثابت العينيّة
دراسة تطبيقية

قال حسان بن ثابت[1]:

ان الذَّوائِبَ من فِهْرٍ واخوتَهم ... قد بيَّنوا سُنَّةً للناسِ تُتَّبَعُ
يَرْضى بها كلُّ من كانت سريرتُه ... تَقْوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شَرَعوا
قومٌ إذا حاربوا ضَرّوا عَدُوَّهمُ ... أو حاولوا النَّفْعَ في أشياعِهم نَفَعوا
سَجِيَّةٌ تلك فيهُمُ غيرُ محدَثةٍ ... إن الخلائِقَ فاعلم شرُّها البِدَعُ
لا يرقَعُ النَّاسُ ما أوهتْ أكفُّهُمُ ... عند الدِّفاعِ ولا يوهون ما رَقَعُوا
ان سابَقوا النَّاسَ يوماً فازَ سَبْقُهُمُ ... أو وازنوا أَهْلَ مجدٍ بالنَّدى مَتَعوا
إن كان في النَّاس سبَّاقون بَعْدَهمُ ... فكُلُّ سَبْقٍ لأدْنَى سَبْقِهم تَبَعُ
ولا يَضِنّون عن مَوْلى بِفَضْلِهم ... ولا يُصِيبُهمُ في مَطْمَعٍ طَبَعُ
لا يَجهلون وان حاولتَ جَهْلَهمُ ... في فَضلِ أحلامِهم عن ذاكَ مُتَّسَعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوحي عِفَّتُهم ... لا يَطْبَعون ولا يُرْديهم الطَّمَعُ
كم من صديقٍ لهم نالوا كرامَتَهُ ... ومن عدوٍ عليهم جاهدٍ جَدَعوا

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د. وليد عرفات ج١/١٠٢ - ١٠٣، ط دار صادر، والأغاني ١٤٩/٤ - ١٥٠.

أَعْطَوْا نَبِيّ الهُدَى والبِرِّ طاعتَهم ... فما وَنَى نَصْرُهمُ عنه وما نَزَعوا
إنْ قالَ سيروا أَجَدّوا السَّيْرَ جُهْدَهم ... أو قالَ عوجوا علينا ساعةً ربَعَوا
ما زالَ سَيْرُهمُ حتى استقادَ لهم ... أهلُ الصَّليبِ ومَنْ كانت له البِيَعُ
خُذْ مِنْهُمُ ما أتى عفواً إذا غَضِبوا ... ولا يَكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الذي مَنَعوا
فإنّ في حَربِهم فاتْرُكْ عداوتَهم ... شرّاً يُخاضُ عليه الصَّابُ والسَّلَعُ
يسمون للحرب تبدو وهي كالحةٌ ... إذا الزَّعانِفُ من أظفارها خَشَعوا
لا يَفْرحون إذا نالوا عَدوَّهم ... وإن أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا جُزَعُ
كأنهم في الوغَى والموتُ مُكْتَنِعٌ ... أسْدٌ بِبِيْشَةَ في أرْسَاغِها فَدَعُ
إذا نَصَبنا لِقومٍ لا نَدِبُّ لهم ... كما يَدِبُّ إلى الوَحْشِيّةِ الذَّرَعُ
أكرمْ بقومٍ رسولُ الله قائِدُهم ... إذا تفرقت الأهواءُ والشِّيَعُ
أهدى لهم مِدْحَتِي قلبٌ يؤازِرُه ... فيما يُحِبُّ لِسانٌ حائِكٌ صَنَعُ
فانهم أفضلُ الأحياءِ كلِّهِمُ ... إن جدَّ بالناس جدُّ القولِ أو شَمَعوا

تمهيد

لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت اليه وفود العرب من كل وجه. قال ابن هشام: «حدثني أبو عبيدة أن ذلك كان في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود»[1].

وكانت قبيلة تميم من القبائل التي رغبت في الاسلام، فيمم وفد منها شطر المدينة المنورة، فلما دخلوا المسجد النبوي نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته مؤذين له بصياحهم، فلما خرج اليهم، قالوا: جئناك نفاخرك فَأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب خطيباً فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بقوله: «قم فأجب الرجل في خطبته فقام ثابت بن قيس خطيباً.

ولم يكن حسان بن ثابت شاهداً هذا المجلس، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه، فأخذ يعد نفسه للموقف بانشاء بعض الأبيات. قال حسان «فخرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول[2]:

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٤١٢/٤ - ١٤١٣ .
(٢) المصدر نفسه ١٤١٦/٤ وما بعدها.

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على أنف راض من معدّ وراغم
منعناه لما حلّ بين بيوتنا بأسيافنا من كل باغ وظالم
ببيت حريد عزّه وثراؤه بجابية الجولان وسط الأعاجم
هل المجد الا السؤدد العود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم

ولما انتهى حسان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلاحيّ يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس الفزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هويا ثم تصطنع
فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا للنازلين إذا ماأنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم الا استقادوا فكانوا الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه فيرجع القوم والأخبار تستمع

قال حسان: «... وقام شاعر القوم فقال ما قال، عرضت في قوله، وقلت على نحو ما قال:

ان الذوائب من فهر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

وشكك ابن هشام في نسبة الأبيات العينيّة الى الزبرقان بين بدر بقوله:

«رواه لي بعض بني تميم، وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للزبرقان»[1] ويرى ابن هشام أيضاً أن قصيدة الزبرقان التي عارضها حسان كانت ميمية فيقول: «حدثني بعض أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا ونضرب رأس الأصيَد المتفاقم
وأنّ لنا المرباع في كل غارة نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

(١) السيرة النبوية ٤/١٤١٦.

فقام حسان بن ثابت فأجابه:

هل المجد الا السؤدد العَوْدُ والنَّدى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمداً ... على أنف راض من معد وراغم.
الابيات[1]

غير أن أبا الفرج الأصفهاني يوثق رواية ابن اسحق في السيرة التي شكك فيها ابن هشام، إذ أخرج بسنده عن أحمد بن زهير الأبيات العينيّة منسوبة الى الزبرقان بن بدر، والأبيات الميميّة منسوبة إلى عطارد بن حاجب[2].

ومهما تكن قيمة رواية ابن اسحق وأبي الفرج الأصفهاني من الصحة أو الطعن، أو منزلتها من الجرح والتعديل، فإن الاختلاف بين الرواة لا يمس الأبيات التي قيلت في هذه المناسبة، وانما يمسّ نسبتها الى الزبرقان أو الى عطارد بن حاجب أو الى قيس بن عاصم المنقري.

وفي التقريب بين تباين الرواة يمكن القول إن شاعري تميم، الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب ألقى كل منهما قصيدة في هذا الموقف، إحداهما عينيّة والثانية ميميّة، وقد ردّ حسان بن ثابت معارضاً القصيدة العينية بقصيدة مرتجلة، وعارض القصيدة الميمية بقصيدة فيها بعض الإعداد، خاصة أن القصيدتين العينيتين تتفقان في وزن البسيط، وتلتقي القصيدتان الميميتان في وزن الطويل.

على أن الزبرقان بن بدر أرفع طبقة في منزلته، وأجود شعراً من عطارد بن حاجب، وقد وصفه ابن سلام بأنه كان شاعراً مُفْلِقاً[3]. ولعل في ذلك ما يؤهله لإنْ يكون مقدماً من تميم في مفاخرتها من جهة، ويصرف اليه نعت حسان بن ثابت في قوله: «شاعر القوم» من جهة أخرى.

١ - المؤثرات الخارجية في تشكيل حركة القصيدة الداخلية.

وأياكان الرأي في هذا الأمر فإن الأبيات العينية التميميّة قد بلورت مرتكز رؤية حسان النفسية، وحددت أبعادها الفكرية، فقيدت حركتها في مدارات ثلاثة:

---

(١) المصدر نفسه ١٤١٩/٤ .
(٢) انظر الأغاني ١٤٦/٤ - ١٥٠ وفي الروض الأنف نسب السهلي القصيدة العينية لقيس بن عاصم المنقري انظر: ٤٣٣/٧ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ١١٧/١ .

١ – المفاخر الجاهلية والرد عليها.
٢ – بيان أبعاد الدين الجديد وآثاره.
٣ – ارشاد بني تميم الى الاسلام واخلاص النصح لهم.

ولكل من هذه المدارات ثقل ضاغط على حسان، وقوة في جذب رؤيته والاستئثار بها، إذ تتوازى في تحقيق الغاية المقصودة من تقديم ما يشبع وجدان بني تميم ويقنعه ويوجهه الى الاسلام، وكان حسان بن ثابت موفقاً حين جعل الجماعة المسلمة بسلوكها مرتكزاً تدور في فلكه هذه المدارات، إذ يأتنس فيه الفخر بالمدح، ولا يتجافى عنهما الوعظ، فهو من جنسهما في التوجيه الايجابي للأفكار والمعاني والسلوك تصريحاً أو تلويحاً.

وإذا كان حسان بن ثابت لم يجتهد في اختيار الشكل الفني للعمل الأدبي، إذ فرض الموقف لوناً تقليدياً من الفن خبره وتمرّس به مناقضاً في الجاهلية والاسلام، فقد اجتهد في مزج مدارات القصيدة الثلاثة بأغراضها من المدح والفخر والوعظ في حركة نامية وبناء متوحد.

٢ – الرؤية الفكرية والنفسية

١/٢

بدأ حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته بحديث مركز ومباشر عن كلية من كليات العقيدة الاسلامية وهي: أن الاسلام دين الفطرة، وكان طرحه لذلك مرتبطاً بغرضين واضحين:

أولهما: مدح الجماعة المسلمة من المهاجرين والأنصار (فهر[١] واخوتهم) بنقاء الفطرة.
وثانيهما: تنبيه بني تميم الى خصائص الدعوة الاسلامية، وغمز جانبهم بصفات المستجيب لها.

ويحمل الحديث عن العقيدة ردّاً على الزبرقان، ونقضاً لفخره بالسيادة القبلية لتميم بين القبائل في قوله:

نحن الكرام فلاحيّ يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع[٢]

وذلك بتأكيد بعدين في شخصيّة الجماعة المسلمة، أحدهما قبلي، وثانيهما ديني[٣] فرفعة

(١) هو الجد الأعلى لقريش، وهو فهر بن غالب بن النضير بن كنانة، والمقصود الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هاجر معه.
(٢) يروى «وفينا تقسم الرّبع» إذ كان من عادتهم في الجاهلية إذا غنموا أن يعطوا الرئيس: ربع الغنيمة.
(٣) يرى الدكتور سيد حنفي: أن حسان «لم يستطع أن يتخيل الرسول خارج قبيلته، وأنه أصبح فرداً لا يخضع للتأثير القبلي، وكأنه شعر أن وفد بني تميم سوف لا ينظر الى شعره بعين الاعتبار إذا لم يمدح الرسول في قبيلته فهذا هو التقليد المألوف» (حسان شاعر الرسول ص١٠٥).

النسب وشرفه سواء في قريش أو في الأوس والخزرج ، فضلاً عن مسؤولية هداية الناس وانقاذهم من الضلال ببيان الدين وحمل دعوته :

إن الذوائب من فهر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله وبالأمر الذي شرعوا.

وليست دعوة بني تميم الى الاسلام بتقوى الله أمراً خارجاً عن معرفتهم «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله»[1] أو بعيداً عن طبيعتهم «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[2] فالله عز وجل ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم «ما من مولود يولد الا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[3].

وهذه الفكرة شريفة «لمس فيها حسان أعظم مفخرة يعتز بها البشر في كل زمان ومكان»[4] من خلال صياغة محكمة في المحاجة والمناقضة ، فبنو تميم بين أمرين لا ثالث لهما ، نقاء فطرة واستجابة لدين الله ، أو سوء طوية وصد عن ذكره.

وعلى الرغم من أن مطلع القصيدة محكم الإنباء عن الرؤية النفسيّة والفكرية بمداراتها أو أبعادها الثلاثة السابقة ، الا أنه لم يكن مغنياً السامع عن التطلع الى تتبع هذا الخبر القائم على عملية البيان في حركة الدعوة ، الذي طرحه حسان في قوله «قد بينوا سُنّة للناس تتبع».

وكان لازم التكامل في عرض هذا الخبر وبناء وحدته وحركته ظاهرياً أن يتبع بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودوره في صياغة الجماعة المسلمة الذي جاء في قوله :

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا

ولكن حسان بن ثابت أراد أن يدفع أولاً مظنّة روّجت لها قريش بين القبائل ، وهي أن الجماعة المسلمة أشتات مجتمعة من الضعفاء والأراذل الذين وجدوا ضالتهم في الدعوة

(١) سورة العنكبوت آية : ٢٩ .
(٢) سورة الروم آية : ٣٠ .
(٣) رواه البخاري ومسلم ، انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٣ - ٥٤ .
(٤) نسمات من عبير الأدب د. محمد سرحان ص ١٠٦ ، ط الثانية دار الطباعة المحمدية - القاهرة.

الاسلامية: «قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون»[1]. «فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا، باديَ الرأي...»[2].

ولذلك ظهرت قوة هذه الجماعة وتمكنها المتوازن في ايقاع الضرر في أعدائهم واحداث النفع بين أصدقائهم، فضلاً عن دقة واتقان في اصابة الغاية التي يقصدون اليها خاصة وقت الحرب، فأفعالهم متكاملة في مختلف الأحوال حرباً وسلماً، هدماً وبناء، وهي ذات أصالة وعراقة.

قوم إذا حاربوا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيّة تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرّها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

واسناد فعل المصدرين (الضر والنفع) أو الشجاعة والسماحة الى الجماعة المسلمة (ضروا عدوهم، أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا) مصوغ مسوق في الزمن الماضي[3]، فضلاً عن الوصف المؤكد المقرر لذلك (غير محدثة). فالاخبار بما كان، لا بما هو كائن، أو يكون، وفي ذلك استرجاع لبعض الوقائع ذات الجذور التاريخية الماثلة في أذهان قبائل العرب ومنها تميم، ولعل في شعر حسان ما يعزز هذا الفخر إذ يقول في مدحه لآل غسان الذين كان يرى في اليمنيّة مادة فخره ومجاله[4]:

ولَقَدْ يَعْلَمُ مَنْ حارَبَنا أنَّنا نَنْفَعُ قِدْما وَنَضُرّ
صُبُرٌ للموتِ ان حلَّ بنا صادِقو البأسِ غَطاريفٌ فُخُرْ
وأقام العزُّ فينا والغنى فَلنا مِنْهُ على الناسِ الكُبُرْ
منْهُمُ أصلي فَمَنْ يَفْخَرْ به يَعْرِفِ الناس لِفَخْرِالْمُفْتَخِرْ

(١) سورة الشعراء آية: ١١١ .
على الرغم من أن هذه الآية والآية التالية لها من المقولات التي جاءت على لسان قوم نوح، الا أنها تمثل قريشاً وحالها مع النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الزمخشري في التعليق على هذه الآية: «وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما زال اتباع الأنبياء كذلك حتى صارت من سماتهم واماراتهم، الا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قال: ضعفاء الناس وأراذ لهم قال: ما زال اتباع الأنبياء كذلك. (الكشاف ج٣/٢٥٠). وحديث هرقل متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بلفظه.
(٢) سورة هود آية: ٢٧ .
(٣) تجدر الإشارة إلى أنَّ الفعلين جواب لإذا، وهي اسم زمان مبهم لما مضى أو لما يأتي، وتكون للمستقبل بكثرة، وقد تجيء للماضي، غير أن الوصف المقيّد «غير محدثة» سوغ الماضي فيها.
(٤) ديوان حسان ١/٣٠٨ .

ولعل في هذا الاسناد والتعبير بصيغة الزمن الماضي ، منجاة لحسان بن ثابت من أي مساس بمعتقده الاسلامي ، أو يقينه بأن الله هو النافع الضار «قل فمن يملك لكم من الله شيئاً ان أراد بكم ضرّا أو أرادبكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا»[1].

ولا ينازع الاحساس بالماضي في هذه الصفة (الشجاعة حرباً كانت أو سماحة وكرماً) الانفعال بحاضر الجماعة المسلمة ومستقبلها الذي جسد بدلالتين في التعبير:

أولهما: المعيار الاسلامي في تقويم الأخلاق لفظاً ومعنى.
وثانيهما: صيغة استمرارية الزمن الحاضر في لا يرقع – لا يوهون.

فقد استعان حسان بالمعيار الاسلامي في تقويم الأخلاق والسجايا ، قديمها والمحدث منها في قوله: «ان الخلائق فاعلم شرّها البدع» وبالقاعدة الشرعية في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «ان شرّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار «فجعل الغريزة والفطرة مسوغاً للخير في قبول السجايا والطبائع (سجية غير محدثة) والمبتدع الحادث سبيلاً للشر في رفض الأخلاق.

حقاً أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مطلق غير مقيد ، يؤكده قوله: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد «وأن الطبائع والأخلاق إذا اصطدمت بما قرره الشارع الحكيم الرحيم تعد بدعاً وضلالا في سلوك المسلم ، ولكن لا مناص من القول إن حساناً بالغ في تأصيله لهذه الصفة ، وتناوله لهذه الفكرة ، لأن الموروث من الطبائع والقيم خاصة في مجال الشجاعة والسماحة كان متعلقه الحمية والتظاهر ، ولأن حساناً حاول احتواء الماضي بخلق الحاضر وفكره والامتلاء به ، ولذلك جاء التعبير عن الامتداد التاريخي في اطراد الأصالة بالتبادل والتناوب بين الماضي والحاضر في الزمن والفعل (لا يرقعون ما أوهت – ولا يوهون ما رقعوا) والتصدير الفني (لا يرقع ورقعوا ما أوهت – ويوهون) في قوله:

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

ويتنامى الاحساس بالجماعة المسلمة في حاضرها ، ويتعاظم الانفعال بها ، لتمييزها بالفضل والتفرد بين الناس لا في الماضي فحسب ، بل يتجاوز الحاضر المشاهد المحسوس الى المستقبل المغيّب:

---

(١) سور الفتح آية ١١ .
وقد يكون الاسناد إليهم على حقيقته ، إذ الحرب مبناها على ايقاع الضرر بالأعداء وفق ما قدّر الله وأذن بوقوعه.

ان سابقوا الناس يوما فاز سبقهم أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
ان كان في الناس سباقون بعدهم فلكل سبق لأدنى سبقهم تبع

ويضارع الاحساس المتنامي في هذا الجانب تصعيد في المعنى[1] ونماء في الايقاع متدرج مطرب الجرس.

فالمسابقة الجارية وان اختلفت فئاتها فقد تنوعت اتجاهاتها، إذ ان مسابقة العامة (سابقوا الناس) فيها فوز هين مقدور عليه في كل حين (يوماً)، ومسابقة الخاصة (أهل المجد) بالندى فيها تميّز أداء الجماعة وإمتاعه، أما مسابقة خاصة الخاصة (السبّاقون) ففيها التبعية المؤكدة لفضل الجماعة المسلمة باقتداء هذه الفئة بها.

وحمل هذه المعاني سياق ايقاعي متماثل الصوت في تكرير مادة سبق (سباقون، سبق، سبقهم) بأبنية مختلفة، فيه اطراب وتلذذ بذكر المكرر. وفيه شمول وانتظام بين صدر البيت وعجزه[2].

وإذا كان الصدق الخلقي جلياً في الأقرار لأهل المجد بتميزهم، إذ عرفت الجاهلية نماذج من الأجواد لا يطاولها مطاول أمثال حاتم الطائي وعبدالله بن جدعان وأوس بن حارثة الجديلي وزيد الخيل النبهاني، فإن هذا الصدق لا يغيب عن هذا التطلع المستقبلي في (بعدهم... تبع) على الرغم من المبالغة الظاهرة التي قد تنازع فيه، وفي شرف المعنى؛ لأن الحماسة في ذلك مصدرها تزكية الله عز وجل لهذه الجماعة في حكمه لها ورضاه عنها: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار، خالدين فيه أبدا، ذلك الفوز العظيم»[3].

وفي فضل المهاجرين والأنصار وعلو منزلتهم في الاسلام، وتبعية الناس لهم واقتدائهم بهم، وتأخر منزلة اللاحقين عن أدنى مراتبهم بقوله تعالى: «والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين»[4] والخيرية لهم مطلقة كذلك

(١) انظر في هذا المفهوم (ترديد الحبك) تحرير التحبير ٢٠٣/٢ والحديث النبوي من الوجهة البلاغية ٢٤٥ – ٢٥٢ .

(٢) عدّ الدكتور ابراهيم سلامة رد اعجاز الكلام على ما تقدمها من صميم الذوق الشعري عند العرب، وذكر له مزايا عدّة في زيادة المعنى وتذكير السامعين وتنبيههم بحلاوة الموسيقى وحسن السبك وجمال العرض (انظر بلاغة أرسطو ص١٢٧ واعجاز القرآن للباقلاني ص٩٣).

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٠ .

(٤) سورة الواقعة آية ١٠ – ١٤، وقال ابن سيرين في تفسير (السابقون السابقون) الذين صلوا الى القبلتين، انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٢٨/٣ .

في قول الرسول صلى الله عليه وسلم «خير القرون قرني ثم الذين يلونه ثم الذين يلونه».

٢/٢

إن تصعيد المعنى بما فيه من طاقات شعورية ودلالات تعبيرية، يحمل تطلعاً معرفياً، خاصة أن الانتقال من الماضي الى المستقبل في شأن الجماعة المسلمة غُيّب الحاضر فيه، فكان تفصيل ذلك وتحليله من خلال مواقف سلوكية تنتظم فئتي الجماعة المسلمة في الغنى والفقر تعاملا مع نماذج بشرية منوعة، فيها المولى والجاهل والعدو، في قيم اجتماعية محددة من الكرم والحلم والشجاعة. وقد جاء ذلك في إطار من الإغراء المحبب، للدخول في الاسلام، والانتظام في الجماعة المسلمة:

ولا يضنون عن مولى بفضلهم ... ولا يصيبهم في مطمع طبع
لا يجهلون وان حاولت جهلهم ... في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة[١] ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
كم من صديق لهم نالوا كرامته ... ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

فالأغنياء والفقراء متوحدون بخلق رفيع، في مجانبة الدنس والخسة والطمع في المعاملة والكسب، فأهل الفضل (لا يصيبهم في مطمع طبع) كالفقراء تماماً (لا يطبعون ولا يرديهم الطمع)[٢]، على الرغم مما في المال من إغراء للغني في الزيادة، .. وجاذبية للفقير في سد الحاجة.

وفي حمى هذا التوحد الخلقي جرى سلوك الجماعة المسلمة ممثلة في هاتين الفئتين متوحداً بممازجة مع الأصدقاء، ومتبايناً بمفارقة مع الأعداء، فأهل الفضل يستوعبون بكرمهم المولى بأنماطه الاجتماعية المختلفة (الصديق، الحليف، الشريك، النزيل، العبد، المعتق، الجار، القريب)، وبأناتهم وحلمهم يحتوون الجاهل بتقلباته النفسية المتباينة (السفه، الطيش، الحمق، التسرع، الغضب). لكن الفقراء الذين أحصروا في عيشهم وكسبهم وان شاركوا الأغنياء في الحفاظ على كرامة الأصدقاء[٣] فانهم غلاظ شداد على الأعداء.

---

(١) السياق على تقدير محذوف (منهم) أو (فيهم) إذ أن الأعفة هم أهل الصفة نحو أربعمائة رجل من فقراء المهاجرين.

(٢) ذهب الدكتور – محمد سرحان الى أن في هذا تكراراً، لأن «الشطر الثاني من كلا البيتين يدور حول معنى واحد تقريباً»، ص١٠٨ .

(٣) ذهب الدكتور عباس الجراري الى أن معنى «كم من صديق لهم نالوا كرامته» وفروا كرامته، وقد يكون المعنى مقلوباً «كم من صديق نال كرامتهم» (من أدب الدعوة الاسلامية ص١٣٣) وذهب الدكتور – محمد سرحان الى أن حساناً: «يقلب المعنى المراد اذ جعلهم ينالون الكرامة من أصدقائهم والوجه أن يعكس فيجعلهم هم مصدر الكرامة، وأن من يصادقهم ينال كرامتهم اللهم الا أن يكون المراد أنهم أكسبوه الكرامة وهو بعيد لا يعين عليه اللفظ» (نسمات من عبير الأدب ١٠٧ – ١٠٨).

ان العداوة متباينة في شدتها ونسبتها، مختلفة في أسلوب علاجها، فاتساع الصدر للجاهل - وهو عدو - يقابله جدع للعدو الجاهد. ولا تبتعد المفارقة عن الممازجة في تعميق الاحساس بالجماعة وترسيخ الفخر بها والاعتزاز بفضائلها وقدراتها، خاصة أن في هذا الفخر نزوعاً قاصداً بالمفارقة اجهاض الفضائل التي جاءت دالة على منزلة تميم ومكانتها في قول شاعرها:

وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتّبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس الفزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هوياً ثم تصطنع
فننحر الكوم عبطا في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فقسرية النهب من الغنائم في تميم، منقوضة بترفع عن الدنس والخسة وعفاف عن المطامع، والمفاخرة بسعي السراة والسادة من القبائل للفضل، يغايره حدب الغنى على المولى من غير سعي دونما نظر الى مكانته ومنزلته، والكرم الحسي من إطعام الشواء ونحر النوق السمان، واشباع النازلين وقت اشتداد الحاجة من القحط مفضول بكرم خلقي فيه الفضل والعفة وعلو الهمة من الحلم والأناة[1].

والحلم والأناة خلق انساني شريف عرفه الجاهليون، وتحلى به بعض حكمائهم لكننا لا نجد فيه المنهج الثابت المطرد الذي جاء الاسلام موصياً به في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تغضب»، ولذلك يصدمنا الشاعر الجاهلي بقوله:

الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويصدمنا أيضاً الشاعر المسلم المنبت من التصور الاسلامي في قوله:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جِنّاً إذا ما نجهل

وتأتلف المفارقة والممازجة في نسق تعبيري متماثل الأداء والغاية، فالفعل المضارع المنفي (لا يضنون، لا يصيبهم، لا يجهلون، لا يطبعون، لا يرديهم) بما فيه من خبرية البناء واستمرارية الزمن، فإنه يدلل على تحقق الخبر واثباته بالحضور المشاهد، والواقع المجرب.

وللاشارة بالوحي دلالة خبرية أخرى موحية بتأكيد الحقيقة وصدقها:

(١) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الحلم والأناة: «هما توأمان ينتجهما علو الهمة» انظر البديع لابن المعتز، ص٢١، واعجاز القرآن للباقلاني ص٦٨ .

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطبعون ولا يرديهم الطمع

إذ (في الوحي) اشارة لثناء الله عز وجل على هذه الفئة «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً»[1].

وخبر السماء عن أهل العفة مجهول لا يعرفه بنو تميم تعبيراً قرآنياً يتلى، لكنهم يدركونه واقعاً وفعلاً مطابقاً للخبر، فهو مشهود متحقق بمشاركة أهل العفة في كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم للجهاد[2]، ويأتي الدليل المؤكد لذلك في السياق بأسلوبين: التكثير في «كم من صديق...ومن عدو» والاستمرارية في صيغة «جاهد» المبنية على الفاعلية، التي تحمل ايحاء دالاً على «قريش» التي عرفت بعداوتها اللدودة للاسلام والمسلمين.

كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

٣/٢

وإذا كانت المواقف السلوكية السابقة يرف فيها خلق اسلامي يحمل تجسيداً لطبيعة العلاقة بين الجماعة المسلمة والأدنى منزلة، والندّ مرتبة، فإن طاعتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صريحة الدلالة على الالتزام بأمر الأعلى والاخلاص له ما دام حقاً وهدى وبّراً.

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
ان قال سيروا أجدوا السير جهدهم أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم أهل الصليب ومن كانت له البيع

ولذلك كانت الاستجابة للنبوة بالطاعة عن رغبة ورضى (أعطوا) لأن فيها الهداية والرشاد ولوازم البر[3] من صدق واحسان وخير وصلات وتراحم وعبادات موصلة الى الجنة.

وغدا لهذه الطاعة ما يميزها ويخصصها من الديمومة والحركة والفاعلية في الأثر، فقد تفانت الجماعة المسلمة في نصرة النبي، ولم تفتر همتها في ذلك حرباً أو سلماً، إذ أخذت نفسها بالحرص على بلوغ الغاية القصوى في الأمر الذي يصدر اليها، مما ترك صدى في انقياد أهل الكتاب من النصارى واليهود الى الاسلام.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣ .
(٢) انظر تفسير العلامة أبي السعود (ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم) المجلد الأول، ص٣٠٧ .
(٣) انظر في معاني البر القاموس المحيط مادة (برّ).

ويحمل هذا الموقف الخلقي المجسد للطاعة وعظاً حاد عن المباشرة بتجاوزه السرد وتفصيل الحوادث واشباعها، الى تصوير حركة الدعوة المتلازمة ببذل الطاعة، من خلال لقطات سريعة بأوعية لغوية دالة من الفعل ورد الفعل، والعامل واقتضائه معموله، والألفاظ وايحاء دلالاتها.

فالتسليم بالطاعة ترتب عليه، بل أعقبه مباشرة العزم على النصرة من غير ريث أو تفكير (أعطوا... فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا) ثم كان التكليف بالجهاد اختباراً للتسليم والبذل والعزم، فإذا بالطلب يأتي بجوابه، والاستجابة تابعة للأمر (ان قال سيروا أجدوا السير.... أو قال عوجوا... ربعوا)

ولذلك كانت سيادة الاسلام نتاجاً لاستمرارية الجهد الذي يمثله العامل (ما زال ومعموله (مستمراً) (ما زال سيرهم حتى استقاد لهم) على أن في مقابلة السير (الجهاد) المطلق في زمنه بالالمام والوقوف والاقامة المقيد بساعة في وقته، انباء بنسبة الحركة الى الوقوف، وعظم معاناة القتال الى قصر التمتع بالراحة، أما القود في (استقاد) فاشارة فصيحة الى قيام هذه الحركة في دعوتها على أساس الاقناع لمن يملك الحجة (اليهود والنصارى) لا على الارغام والقهر والسوق[1].

تلك هي حكاية الاسلام وأهله، وخبر حركة دعوته وانتشاره، الصدق الخلقي مؤتلف فيها بالصدق الفني، وهو أساس تقوم عليه الاسلامية أو الأدب الاسلامي فليس الحق نقلاً حرفياً للواقع، لكنه صدق في الإخبار عنه، وعدم قلب لنا موسه أو عبث بنظامه، أو اخلال بمقتضياته من الحسن والاحساس[2].

والانفعال بهذا الحق جاء قوياً عنيفاً سادت فيه المباشرة والصراحة في الأمر والنهي (خذ، لا يكن، اترك) قصداً الى النصح والتوجيه، والترغيب والترهيب.

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم شرّاً يخاض عليه الصاب والسلع

وكما كان دوي الأمر والنهي قوة صدامية مباشرة في وعظ بني تميم وتنبيههم وتحذيرهم، فإن الصورة التركيبية العجيبة – التي جاء الأمر من خلالها في البيت الثاني، تزيد في عنفوان الانفعال وترفع من نبرة الوعظ فيه من غير مباشرة، إذ أن بناءها قائم على المبالغة في عظم الشر

(١) القود: نقيض السوق فهو من أمام، وذاك من خلف.
(٢) انظر منهج الفن الاسلامي – محمد قطب، ص٦٢، ٦٥، ٧١ .

الواقع على من يحارب الجماعة المسلمة وشدته، لأنه سيجني شراً يتجرعه ممزوجاً بمرارة الصاب والسلع[1]. لكن هذا البناء مقصود في احداث الوقع المميز بالرهبة في حسّ السامع، باظهار المعقول الخفي (أثر محاربة المسلمين وعظم المشقة فيها) بصورة المحسوس الجلي (الشر بمرارته من الصاب والسلع) «لأن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي الى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكنى، وأن تردها في الشيء تعلمها اياه الى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحوأن تنقلها عن العقل الى الاحساس، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع، وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام»[2].

والوعظ المباشر بالأمر والنهي أو غير المباشر بالصورة السابقة يحمل في هذا المجال وظيفة فنيّة في ربط المعاني وأحكام البناء الفني، إذ جاء الأمر والنهي انفعالاً بما تقدم من أخبار بالتلاحم في حركة الدعوة، وجاءت الصورة التمثيلية مهاداً للوعظ بالصورة العسكرية المتكاملة التالية:

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم ... وان أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد ببيشة في أرساغها فدع
إذا نصبنا لقوم لا ندبّ لهم ... كما يدب الى الوحشيّة الذّرع

إذ تعرض هذه الصورة للأبعاد القتالية المتعددة للجماعة المسلمة[3]، الحرب الاضطرارية، والحرب الاختيارية، وفي صخب الحرب وجلبتها، وما بعد هدأتها.

والثبات والتوحد هو المنهج المطرد الذي يحتوي هذه الأبعاد في تعددها فلا فرق بين صورتهم في السمو والظهور إذا فرضت الحرب عليهم (نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها) أو إذا فرضوها على أعدائهم (إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم)، ولا تباين في شدتهم وتماسكهم في ساحة الحرب أو ما بعدها، إذ لا تزعزهم الهزيمة، ولا يطيش بهم النصر.

ومفردات هذه الصورة المجسمة لقوة المسلمين، المقررة لشدتهم تقليدية معروفة في شعر الحرب عند العرب، فالمخالب والأظفار والأسد والوحشية، والظهور وعدم الاختتال مما شاع ذكره، وكثرت الاستعانة به في الابانة عن القوة وتجسيدها، وكان المنتظر أن تعرّج هذه الصورة

(١) الصاب: شجر شديد المرارة، وعصيره شديد الاحراق، وقيل انه عصارة الصبر وشجر السلع مرّ كذلك.
(٢) أسرار البلاغة، ص٩٤، تصحيح محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة ١٩٥٩م.
(٣) فهم الدكتور سيد حنفي أن هذه الأبيات خاصة بالأنصار والتأييد الذي منحوه للرسول (أنظر ص١٨٠) وليس في الأبيات ما يرشح هذا الفهم أو يعززه.

على تناول فقه الحرب في الاسلام أو بعض سماته الدالة على تميّزه وأهله في هذا المجال ، وربما أجزأ في ذلك ما تقدم من سرد متوثب لحركة الدعوة ودافعيتها بغرض الترغيب ، ثم كان ابراز الخطوط الحادة للقوة بما يجعلها محسّة مشهودة قصداً الى التحذير.

فمقصود هذه الصورة بوسائلها البيانية المنوعة من تشبيه وتمثيل واستعارة – الوعظ بالتحذير والترهيب ، ليشغل بها ذهن السامع في مدى الخطر ، وليستحضر هذه الصورة كلما غرّته القوة ، أوأوقع الوهم في نفسه خاطراً من العدوان.

٤/٢

ولم يجانب التحذير والترهيب في هذا الوعظ الأداء المهذب من الحسن والاحسان ، ذلك أنه «إذا صدق الوصف انقسم الى صحة واتقان ، وحسن واحسان والى اجمال وشرح ، والى استيفاء وتقريب والى غير ذلك من الوجوه»[1].

وما كان ذهن حسان رضي الله عنه خالياً من نماذج قبلية بعينها يعرّض بها في الجبن والضعف أو في الاختتال والتباطؤ في الحرب ، خاصة أن تجربة المسلمين مع القبائل مستوفاة في هذا المجال ، غير أنه آثر التلميح دون التصريح وعمد الى الاشارة العامة من خلال «الزعانف» بما فيها من دلالة على (القبيلة القليلة العدد ، أو السفلة من الناس ، أو أولو القوة والشوكة) واطلاقه النكرة «قوم» من غير تحديد المقصود.

وفي الأداء اتقان ومبلغ من الابداع في الاستعارة والتمثيل ، أما الاستعارة البديعة في السمو الى الحرب ، ونالتنا مخالبها ، والزعانف خشعوا ، وأظفارها فقد قام عليها بناء البيت :

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

وأما تمثيل الحركة والهيئة في قوله :

كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد ببيشة في أرساغها فدع
إذا نصبنا لقوم لا ندبّ لهم كما يدبّ الى الوحشية الذرع

والتمثيل «إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صوره

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص٢٤٤ .

الأصلية الى صورته، كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب اليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم... وان كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى الى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلي الغياية، ويبصر الغاية...»[1].

والمقابلة أظهر لون فني قام عليه الوعظ في تقريب الصورة العسكرية وتمكينها، إذ عملت المفارقة فيها على ترسيخ الترهيب، فسمو المسلمين وظهورهم في الحرب بشجاعة إذا داهمتهم بحدتها، يقابله خشوع الزعانف (أقوياء أو ضعفاء) إذا.. نالتهم أظافرها، والبون شاسع بين السمو والخشوع، والمخالب والأظفار، حركة وعنفاً. وزحفهم الى أعدائهم ظاهرين معلنين ثقة بأنفسهم مباين لمن يستتر في حربه أو يدب متباطئاً في سيره، وهم لا يجاوزون خاصية التوازن في التصور الاسلامي فكما لا يغريهم النصر بالفرح فإن الهزيمة لا تفت في عضدهم، أو تملأ بالخوف قلوبهم.

ولم تخل الصورة من عنصر المفارقة في عطف هذه القوة بأبعادها المختلفة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاعلان عن الإحساس المعجب بهذه الجماعة المسلمة والفخر بالانتماء اليها.

أكرم بقوم رسول الله قائدهمُ ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يؤازره ... فيما يحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

فالمفارقة ضمنية بالشرط وجوابه المفسر المذكور، إذا تفرقت الجماعات شيعا وأحزابا متباينة، تعاضدت الجماعة المسلمة برسول الله مجتمعة. وان جدّ الناس قولا أو لعبوا مزحا وهزلا، ففضل الجماعة المسلمة أيضا على سائر الاحياء متفق عليه.

على أن المدح القائم على أسلوبي التعجب (أكرم بقوم) والتفضيل (أفضل الأحياء)، ما يعزز هذه المفارقة ويقوي من فن المقابلة، ويجسد الانفعال.

٣ - آراء الباحثين

مما سبق من تحليل الرؤية الفكرية والنفسية في القصيدة يمكن تسجيل الملاحظات

(١) أسرار البلاغة ٨٤ - ٨٧ . والغياية: كل ما اظلك من فوق رأسك.

التالية :-

أولاً: تركز الأساس الفكري والنفسي في القصيدة حول الجماعة المسلمة وتوحده في خط اسلامي غير متباين، تأصيلا ماضيا وواقعا حاضرا، ايجازا وتفصيلا.

ثانياً : اختص الحديث في الدعوة بالجانب السلوكي الذي هو لازم الفكر وقرينه في الشخصية الاسلامية، وهذا الاختصاص في التوجه المادي المحسوس أعفى القصيدة من الحاجة الى الدليل المنطقي أو الحجاج العقلي والجدل الفكري، إذ أن ما كان حسّا مشهوداً أوقع في التصديق.

ثالثاً: تطويع الأفكار الاسلامية بالتعبير عنها تعبيراً غير مباشر بالايحاء والدلالة والامارة، من غير استعانة مباشرة بالآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة رفعاً لدرجة اسلامية النص[1].

رابعا: الوعظ بالموقف السلوكي المتوهج الانفعال.

ومن ثم يمكن أن نقول ان الرأي الذي يذهب الى أن هذه القصيدة «تضم نفس المعاني الجاهلية. ونفس القيم التي كان العرب متعارفين عليها في المديح، وقد صاغ حسان هذه المعاني في صور وأشكال مختلفة مما يدل على تمكنها من نفسه وتمرسه بها وتفاعله معها، أما الأفكار الاسلامية فقليلة، ولم يذكرها الشاعر الاعلى شكل سرد أو عرض خاطف ليس في صورها ما يأخذ الألباب»[2] رأي فيه كثير نظر لأنه انما يلتفت الى ظاهر المعاني دون مقتضاها، فضلا عن أنه لم يعن نفسه البحث عنها في عمق الدلالة ولازم الاشارة.

وكذلك فان الرأي الذي يقول: «وهو في هذه القصائد (الميمية والعينية) جاهلي النزعة والأسلوب، شديد الاحساس بمجد قومه، كثير التغني بسيادة أوائله، يغلب زهوه بما صنعوا للرسول على زهوه بالرسول، وكأنه لا يذكر حاضرهم في الاسلام الا ليضم الى تليد مجدهم مجدا

(١) جرى منهج أكثر الباحثين عن أثر الاسلام في الأدب حول التتبع الظاهري للآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة في النصوص الأدبية. لكن الاسلامية في الأدب تصور فكري في تعبير أدبي يتعدى ما يلوح في ظاهر النص من الآيات والأحاديث الى ما يجول في داخله من فكر واحساس وما يصور من مواقف انسانية إذ يعكس صدى القيم في النفس أو الكون أو الحياة من خلال التصور الاسلامي لكل ذلك.
(انظر مقدمة في دراسة الأدب الاسلامي د. مصطفى عليان، ص١٢، ط دار المنارة - جدة ١٩٨٥م).

(٢) من أدب الدعوة الاسلامية د. عباس جراري ص ١٣٥ .

طارفا، وكأن ايواءهم الرسول ونصرهم اياه قد أحيا شعوره بمآثر اسلامية، وأمده في فخره بمدد غزير ونفخ فيه روحا قويا، أضفى على شعره ثوبا من الفخامة والجزالة والحسن»[1] ينطبق عليه الحكم السابق اذ أن صاحب هذا الرأي استند الى المعاني الصريحة الدلالة للقصيدة الميمية التي فخر فيها حسان بالانصار – قائلا:

منعنا رسول الله اذ حلّ وسطنا على أنف راض من معدّ وراغم
منعناه لما حلّ بين بيوتنا بأسيافنا من كل باغ وظالم..
الأبيات

ثم لأن صاحب هذا الرأي خلص إلى إصدار حكم جائر وظالم للقصيدة العينية، اذ لم يدرك تميّز التوحد في الجماعة المسلمة والحديث عنها[2].

أما القول الذي ذهب الى أن «شعر حسان في هذه القصيدة من الشعر الوسط، وهو فيها يعلو ويهبط، ويقوى ويضعف، ومعانيه سطحية ضحلة وفيها كثير من الاعادة والتكرار، ولكنها تعد من خير شعره»[3] فهو وان كان الرأي الوحيد – فيما أعلم – الذي صدر عن وقوف عند القصيدة محللاً ناقداً لكثير من جزئياتها، الا أنه تحليل لا يجاوز نثر المعاني وتفسيرها معجمياً ودلالياً، والاشارة الى مواضع التكرار والضعف، من غير ربط لذلك بحركة القصيدة ورؤيتها الداخلية التي تتمثل أصداؤها في التعبير اللغوي ورموزه الدالة عليها المستوعبة لها.

٤ – وحدة الموضوع

وكان للرؤية الفكرية والنفسية أثر فاعل في تناسق النظم، والتئام أجزائه في وحدة القصيدة الموضوعية التي تبدو مظاهرها في وحدة البناء ووحدة السياق.

فالقصيدة متوحدة في طرفيها مطلعاً ومقطعاً، بداية ونهاية، متوحدة في غرضها، إذ افتتحت بقضية تميز الجماعة المسلمة قبلياً ودينياً.

إن الذوائب من فهر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله وبالأمر الذي شرعوا

(١) حسان بن ثابت – د/ محمد طاهر درويش، ط: دار المعارف بمصر ص ٣٥١ – ٣٥٢ .
(٢) وبالفهم المغاير لمقصود المدح قال د. احسان النص «وهي في جملتها مديح لقريش وتعداد لمآثرهم «أراد أن يمحو من نفس الرسول وأصحابه القرشيين الأثر السيء الذي خلفه في نفوسهم تعريضه بالمهاجرين وتقليبهم بالجلابيب». حسان بن ثابت، حياته وشعره: ص ١٣٧، ١٧٣ .
(٣) نسمات من عبير الأدب ص ١٠٥ .

وختمت بالقضية نفسها فعادت لنقطة انطلاقها تركيزاً وترسيخاً وتكاملاً.

أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء والشيع
فانهم أفضل الأحياء كلهم ان جدّ بالناس جد القول أو شمعوا.

ويتلاحم هذا التوحد بمحصلة الرؤية أو قاعدة ارتكازها، بالجماعة المسلمة في سلوكها الثابت ومواقفها المتعددة سلماً وحرباً، فتكامل البناء ايجازاً وتفصيلاً تبعاً لمقتضيات الرؤية نفسياً وفكرياً.. وعلى ذلك فإن الابانة عن المقاصد في الخطاب جاءت في القصيدة محققة المعيار الاسلامي في نظرية الشعر وهو «ضبط المعاني وترتيبها وليس حفظ الألفاظ وتصنيعها»[1].

١/٤

غير أن خللاً أصاب حركة بعض المعاني تقديماً وتأخيراً وحشوا وتكراراً من غير مساس بالترتيب العام للمعاني في القصيدة ووحدة البناء الموضوعي فيها، من ذلك:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ان الخلائق فاعلم شرّها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

ذلك أن مقتضى تكامل المعنى وتوحده أن يتقدم البيت الثالث على البيت الثاني لأن السياق حديث عن القوة والتمكن في الحرب والدفاع، فإذا تم الوصف بعموم الخبر (ايقاع الضرر) كان التفريد لهم بخصوص الوصف (السجية والطبع الأصيل). ومن ذلك أيضاً قوله:

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم وان أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد ببيشة في أرساغها فدع
إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم كما يدب الى الوحشية الذرع

كان الأحسن في تتالي الصورة ونمائها أن ترتب على النحو التالي:

إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم كما يدب الى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

(١) انظر اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٢٦ .

كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد ببيشة في أرساغها فدع
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم وان اصيبوا فلا خور ولا جزع

فنفي الاختفاء مردف باثبات الظهور والسمو، ثم تكون الشراسة في كلّ، ونتاج ذلك التوازن في النصر أو الهزيمة.

وفي القصيدة بعض الحشو، من ذلك قوله:

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله وبالأمر الذي شرعوا

فإن قوله (وبالأمر الذي شرعوا) حشو لا معنى له، بل ربما كان مُخِلاً بالأسلوب والمعنى، وان كان يمكن حمله على أن يكون معطوفاً على الضمير في (بها)، ويكون المراد يرضى بالشريعة المنزله من السماء وبما شرعه الرسول وأمر به[1].

وقوله:

فإنهم أفضل الأحياء كلهم ان جدّ بالناس جد القول أو شمعوا

فإن الشطر الأخير لا لزوم له، ولم يأت بجديد، وانما أتى به لتكملة البيت فحسب[2]، ولعل الأفضلية المقررة مصروفة الى صدق الجماعة المسلمة في الجد والهزل، فهي وان شمعت أو مزحت فلا تقول الا حقاً، شأنها في ذلك شأن الجد، وقد يكون المراد الإبانة عن أن الجاد والهازل لا يستطيع نقض منزلتهم، ولا النيل من تقدمهم وتميّزهم وأفضليتهم.

أما التكرار الذي يبدو ظاهراً هو قوله:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

مع قوله:

كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

فقد مضى ربط البيت الأول بالتأصيل لقوة الجماعة المسلمة، والتدليل بالبيت الثاني على حياة أهل العفة وسلوكهم في السلم والحرب.

(١) انظر نسمات من عبير الأدب ص١٠٨، ١٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص١٠٩ .

وكذلك فإن تكرار الشطر الثاني في قوله:

ولا يضنون عن مولى بفضلهم ولا يصيبهم في مطمع طبع

وقوله:

أعفة ذكرت في الوحى عفتهم لا يطبعون ولا يرديهم الطمع

يستوعبه التوحد الخلقي لفئتي الجماعة المسلمة، الأغنياء والفقراء، في العفاف والترفع عن المطامع.

ولا تنازع هذه الاشارات، من التقديم والتأخير والحشو والتكرار – بما فيها من احتمال وتوجيه، في وحدة الموضوع وضبط المعاني وترتيبها العام، لكنها تنازع في صواب الرأي الذي يقول: «زعم الرواة أن حسان نقض أبيات الزبرقان والأقرع بن حابس ارتجالاً،

وهو أمر يصعب التسليم به... وليس في هذه القصيدة ما يوحي بارتجالها»[1] لأن هذه الاشارات ملامح دالة على عدم تثقيف وتحبير واعداد، على أن نفي الارتجال عن القصيدة رأي انطباعي من غير دليل أو تبرير أو تعديل. ولعل حكم الأقرع بن حابس لهذه القصيدة وتفضيلها انما يقبس من ميزان العرب النقدي في مثل هذا المجال، إذ أنها تسلم السبق «لمن بده فاغزر».

٢/٤

وينتظم السياق في القصيدة توحد ظاهر في ضمير الجماعة الطاغي تردده في الأبيات متصلاً غير منفصل، غائباً غير حاضر ولا متكلم، بالاسم والفعل، مثل: حاربوا، ضروا، عدوهم، أشياعهم، أكفهم، فضلهم، يطبعون، يضنون، يصيبهم، اعطوا، عوجوا، غضبوا...الخ، بما يدل على وحدة الفعل والسلوك عند الجماعة المسلمة وعدم تباينهم مهاجرين وأنصاراً.

ولمعجم الألفاظ الاسلامية حضور في هذا السياق، إذ جاء انبثاثه في القصيدة شاملاً، يعكس الثقافة التي ينتمي اليها الشاعر، من ذلك سنّة، تقوى الاله، شرعوا، البدع، الوحي، نبي الهدى والبر، أهل الصليب، رسول الله.

وللأدوات التعبيرية ارتباط بهذا التوحد في السياق، غير أنها لم تتخلص من موقف الخطيب بوسائله من الايقاع والنبر بشكل خاص فيما يلي:

(١) حسان بن ثابت، حياته وشعره، د. احسان النص ١٣٧ .

– القافية : فحرف العين من الحروف الحلقية ذات الوقع الشديد والجهارة الصوتية ، وعلى الرغم من أن حركة حرف الروي عملت على تخفيف وقع صوت العين للمد الطارىء في القافية، فإن بنية بعض الألفاظ في القافية أبرزت هذه الشدّة في الايقاع ، من ذلك : تُتَّبَع ، البدع ، رقعوا، طبع ، جدعوا ، فَدَع ، الذّرع ، صنع .

وكان أكثر الحروف دوراناً في اظهار العين ، الباء ، والدال والراء ، حقاً لقد فرض شاعر تميم على حسان هذه القافية ، فكانت مهمته في الاختيار عسرة لكنها ذات براعة في القدرة على مجاراته ومناقضته .

– الدوي الصوتي في الألفاظ ، وذلك ملموس في اختيار بعض الألفاظ ذات البنية الايقاعية الشديدة الصدى مثل ، يرقع ، يطبعون ، جاهد ، أجدوا ، استقاد ، غضبوا ، يخاض ، الصاب والسلع ، الزعانف ، خور ، مكتنع ، ندب .

وملاحظ ذلك أيضاً في الاعتماد على فعل الأمر في الخطاب قوة صدامية تنبيهية مثل: فاعلم ، خذ ، فاترك ، اكرم .

– أسلوب الشرط المصدر (بان) و(إذا) الذي جاء الاتّكاء عليه في القصيدة أسلوباً في التقرير والاستدلال كقوله :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

وقوله :

ان كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

وقوله :

إذا نصبنا لقوم لا ندبّ لهم كما يدب الى الوحشية الذرع

على أن هذا الاستدلال لا يجري على وتيرة واحدة من الرتابة والترتيب في الجمع بين الفرضية ونتيجتها اللازمة بنظام الشرط وجوابه ، فأكثر دورانه في القصيدة على تقديم النتيجة على أسلوب تحقيقها في الفعل نفياً أو اثباتاً، قصداً الى الأهمية والاهتمام. فمن النفي قوله:

لا يجهلون وان حاولت جهلهم في فضل أحلامهم عن ذاك متسع

وقوله:

لا يفرحون إذا نالوا عدّوهم وان أصيبوا فلا خور ولا جزع

ومن الاثبات قوله:

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

وقوله:

فانهم أفضل الأحياء كلهم ان جدّ بالناس جدّ القول أو شمعوا

وقوله:

أكرم بقومٍ رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء والشيع[1].

وهذا التنويع المغاير للرتابة في تقرير القضايا والاستدلال عليها، مرتبط في مقصوده بمنهج الخطيب القاصد بمهارة الى شغل السامع تارة بالقضية المرادة التي يتقدم عليها الأسلوب المحقق لها، وحمله على البحث عن أسلوبها تارة أخرى حين تدفع اليه بالتقديم أولاً، وفي كلِ جانب من التأثير والاقناع.

وهذه الوحدات الايقاعية المتباينة الشكل المتحدة الموسيقى، ذات مهارة في تشكيل الأسلوب بنبرات متناسبة وطبيعة السامعين، وقد حققت الغاية التي لخصها آنذاك بانطباعية صائبة الأقرع بن حابس في قوله: «والله ان هذا الرجل لمُؤَيَّد، لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا» وكفى به ناقداً مميزاً.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين،،،،

(١) عد ابن طباطبا هذا البيت من الأبيات التي زادت قريحة أصحابها على عقولهم، ثم قال: «كان يجب أن يقول: هم شيعة رسول الله؛ لأن في هذا الكلام جفاء» (عيار الشعر ص٩٥).

مصادر البحث ومراجعه

– **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** (تفسير العلامة أبي السعود) لأبي السعود ابن محمد العمادي (ت٩٧٣هـ)، ط دار الفكر – بيروت.

– **أسرار البلاغة** لعبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ) تصحيح محمد رشيد رضا، ط مكتبة القاهرة بمصر السادسة ١٩٥٩ .

– **إعجاز القرآن** لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) تحقيق السيد أحمد صقر، ط دار المعارف – الخامسة – بمصر.

– **والأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، ط مصورة عن دار الكتب المصرية – وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦٧ .

– **الحديث النبوي من الوجهة البلاغية**، د. عزالدين السيد، ط دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٩٧٣ .

– **حسان بن ثابت حياته وشعره**، د. إحسان النص ط دار الفكر بيروت.

– **حسان بن ثابت**، د. محمد طاهر درويش، ط دار المعارف بمصر – بدون تاريخ.

– **حسان شاعر الرسول**، د. سيد حنفي، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، سلسلة اعلام العرب.

– **ديوان حسان بن ثابت** تحقيق د. وليد عرفات، ط دار صادر – بيروت ١٩٧٤ .

– **الروض الأنف** للإمام عبدالرحمن السهيلي، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، ط دار الكتب الحديثة ١٩٦٧ .

– **عيار الشعر** لمحمد بن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) تحقيق طه الحاجري – المكتبة التجارية ١٩٥٦ .

– **السيرة النبوية** لأبي محمد عبدالملك بن هشام (ت٢١٨هـ) تحقيق نخبة من العلماء، ط دار الفكر – مصر (بدون تاريخ).

- **طبقات فحول الشعراء** لمحمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ) تحقيق محمود شاكر، ط المدني بمصر (بدون تاريخ).

- **القاموس المحيط** لمجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، ط مكتبة مصطفى الباني الحلبي- بمصر - ١٩٥٢ .

- **مختصر تفسير ابن كثير** [تفسير ابن كثير] لأبي الفداء اسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ) اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٨١ .

- **مقدمة في دراسة الأدب الاسلامي** - د. مصطفى عليان، ط دار المنارة، جدة ١٩٨٥ .